الشخصية المتعددة والوسطاء

وضع خليل جبران الشاعر السوري الاميركي كتيباً باللغة الانكليزية ضمّنهُ كثيراً من الحكم على طريقة خيالية شعرية . ومما اوردهُ فيهِ ان امرأة وابنتها كانتا مصابتين بداء الجولان في النوم (سمنمبولزم) فالتقتا ذات ليلة في مكان خارج بيتهما وهما تمشيان نائمتين والتفتت كلٌّ منهما الى الاخرى وكلتاهما كانتا عدو لها وتمنت موتها. ثم صاح الديك فاستيقظتا وتكلمتا كلام الحب كام وابنتها

فرضَ الكاتب ان لكلٍّ من هذه المرأة وابنتها شخصيتين مختلفتين متناقضتين الواحدة في النوم والاخرى في اليقظة . وهذا ليس بالامر النادر . ثم ان المرء يستطيع غالباً ان يكبح جماح عواطفهِ في اليقظة ولكنهُ لا يستطيع ان يكبحها في النوم ولذلك يقال ان حالة المرء في يقظتهِ صناعية اكثر منها طبيعية. وما يحدث من الفرق الظاهر بين النوم واليقظة يدوم في البعض اياماً

ذكر الفيلسوف الاميركي وليم جمس في المجلد الاول من كتابهِ مبادىء الفلسفة العقلية المطبوع سنة ١٩٠٧ حادثة شخص صح لهُ بذكر اسمهِ وهو الس الدل بورن. قال انهُ كان قد تعلّم ليكون نجاراً . وكان معطّلا في مذهبهِ ولكنهُ اصيب يوماً بحادث افقدهُ البصر والسمع وقتيًّا فترك التعطيل وتدين وصار يجول للوعظ والارشاد لكنهُ بقي معرّضاً للصداع والكآبة والاغماء وقد يدوم اغماؤهُ ساعة. وفيما سوى ذلك كان على تمام الصحة والنشاط حسن الاخلاق ظاهر السيرة

وفي السابع عشر من يناير سنة ١٨٨٧ سحب ٥٥١ ريالاً من بنك في بلدبروفدنس واوفى بعض الديون التي كانت عليهِ وركب مركبة تجرها الخيل . وهذا آخر ما يتذكرهُ . فلم يرجع الى بيتهِ ذلك اليوم ومضى شهران ولم يسمع احد عنهُ شيئاً . وأُعلن عن غيابهِ في الجرائد على غير جدوى حتى قام في الاذهان ان بعض الاشقياء قتلهُ ليسلب ما معهُ من النقود

وبعد اسبوعين اتى رجل اسمهُ برون بلد نورستون واستأجر دكاناً صغيراً وجعل يبيع فيهِ الورق والاقلام والحلويات. وفي ١٤ مارس نهض في الصباح ونادى اهل البيت الذي هو فيهِ وطلب منهم ان يخبروهُ اين هو وقال لهم ان اسمهُ الدل بورن ولا يعرف نورستون ولا البيع والشراء . وان آخر ما يتذكره انهُ

سحب دراهم من البنك في بروفيدنس ولا يصدق انهُ مضى شهران من حين سحبها . فظن اهل البيت انهُ مصاب بدخل في عقلهِ واستدعوا لهُ طبيباً فكان ظنهُ مثل ظنهم ولكنهم ارسلوا تلغرافاً الى بروفيدنس سألوا عنهُ فوجدوا ان ما قالهُ صحيح واتى ابن اختهِ حالاً وعاد بهِ الى بيتهِ وكان قد نحل جسمهُ حتى فقد من وزنهِ عشرين رطلاً . ولم يكن يُلمّ ابن قضى الاسبوعين الاولين من غيابهِ قبلما استأجر الدكان في بورستون ولم يرهُ احد يعرفهُ فيخبر بما كان من امرهِ في ذينك الاسبوعين . وكان مدة اقامتهِ في بورستون شديد المواظبة على عملهِ وتكلم مرةً في الكنيسة فاحسن الكلام وذكر حادثة حدثت لهُ وهو في حالتهِ الاولى

قال الاستاذ جمس « ان هذا كل ما عُرف من امرهِ حتى سنة ١٨٩٠ واقنعتهُ حينئذٍ ان يُستهوى فاصابتهُ الغيبوبة حالاً وعادت اليهِ ذاكرتهُ لما كان في حالتهِ الثانية اي لما سمّى نفسهُ بروون . ونسي كل ما كان يعلمهُ وهو في حالتهِ الاولى وقال انهُ سمع باسم اندل بورن ولكنهُ لا يعرفهُ ولا اجتمع بهِ في حياتهِ . فقلنا لهُ ألاَّ تتذكر زوجتك مسز بورن فقال انهُ لم يكن لهُ زوجة قط . ثم اخبرنا عما جرى لهُ مدة طوفانهِ في البلاد في الاسبوعين الاولين من اختفائهِ وقال انهُ قضى نصف نهار في بوستن وليلة في نيويورك ونصف نهار في نيوارك وعشرة ايام او اكثر في فيلادلفيا وكان يقضي الوقت في الراحة والقراءة والجولان . واخبرنا اخباراً مفصلة عما جرى لهُ في نورستون كأن حياتهُ كلها هي ما عاشهُ في حالتهِ الثانية لا الاولى . ولم يذكر سبباً لجولانهِ سوى انهُ تعب واراد الراحة . وكان منظرهُ مدة غيبوبتهِ هذه منظر رجل طاعن في السن يحاول ان يتذكر ما جرى لهُ في ماضي حياتهِ . وقد حاولت ان امزج بين شخصيتيهِ بالتنويم حتى يتذكر ما جرى لهُ فيهما كليهما معاً فلم افلح »

ومن هذا القبيل حادثة وقعت لنا في هذه العاصمة . لقينا فيها اول سنة قدومنا رجلاً في نحو الخمسين من العمر اسمر اللون قوي البنية دموي المزاج عملهُ الزراعة والاهتمام بالامور الزراعية حتى لا يكاد حديثهُ يخرج عنها . جاءنا ذات يوم بعد ان عرفناهُ وعاشرناهُ بضع سنوات وقصَّ علينا قصة في غاية الغرابة قال اني ولدتُ في مدينة صيدا في خان الافرنج ولما أُريد تعييري (عمادي) اتفق ان لويس فيليب ملك فرنسا كان هناك اتى زائراً للقدس الشريف

فطلب والداي منهُ ان يكون عرّابي فقبل واهدى اليَّ مليون فرنك وضعها باسمي في بنك فرنسا وقد بلغت الآن اكثر من عشرة ملايين من الفرنكات لكن ابن عمي ذهب الى فرنسا وادعى انهُ انا قصدْ الاستيلاء على هذا المال . ثم جعل يشتمهُ ويلعنهُ . وكرّر هذه القصة على سمعنا مراراً واتانا باوراق كثيرة قال انها مستندات تؤيد دعواهُ . لكن هذه الحالة كانت تزول بعد ايام فيعود الى جاري عادتهِ يتكلم عن الزراعة ودودة القطن وما اشبه من المواضيع

وبعد بضعة اشهر جاءنا ذات يوم وقد طلع لهُ طالع جديد وهو ان لهُ خصوماً يتعقبونهُ ويشتمونهُ بالتلفون . وبينما هو يتكلم قال لنا اسمعوا اسمعوا واشار الى التلفون الذي عندنا وقال ألا تسمعون ما يقولهُ هؤلاء ونهض الى التلفون وامسك سماعتهُ ويجعل يشتمهم . وكرر زيارتهُ لنا والدعوى ان خصومهُ يتهكمون عليهِ ويشتمونهُ بالتلفون . لكن هذه الحالة كانت تفارقهُ ايضاً فيعود الى جاري عادتهِ . وبعد مدة تغلبت حالة الجنون على حالة العقل حتى حاول قتل بعض ذويهِ فوضع في المارستان ومن ثم جعل يرسل التقارير المشبهة الينا والى لورد كرومر وملك الانكليز ويضمنها الغث والسمين الى ان خارت قواهُ وقضى نحبهُ مع شدة ما لقي من العناية . وقد كنا نرى فيهِ الحالتين العقليتين على تمام الجلاء ونرى انتقالهُ من احداهما الى الاخرى كأننا كنا نرى جانباً من دماغهِ او ذاكرتهِ يسكن ويخمل فيضيق الجانب الآخر كما يحدث للوسيط حينما تقع عليهِ العيبوبة . ويتعذر علينا ان نصدق ان شيئاً من الخارج كان يدخل دماغهُ ويؤثر فيهِ ثم يخرج منهُ ثم يدخل ثانية دواليك لاسيما وان اقوالهُ وافعالهُ في النوبة الواحدة لم تكن هي هي تماماً كلما انتابتهُ

وذكر صديقنا الدكتور وير مثل الاميركي المشهور في كتاب مدرسة الاطباء بفيلادلفيا سنة ١٨٨٨ حادثة قديمة من هذا القبيل فصلها تفصيلاً دقيقاً بليغاً لانهُ كان من بلغاء الكتّاب عن فتاة اسمها ماري رينلدز قال ما خلاصتهُ :— وجدت هذه الفتاة ذات يوم مستغرقة في النوم بعد الساعة التي اعتادت ان تستيقظ فيها ثم استيقظت بعد ان مضى عليها نائمة نحو عشرين ساعة ولكنها استيقظت على غير ما كانت عليهِ قبلما نامت فان ذاكرتها فارقتها تماماً وظهر كأنها وجدت في العالم في تلك الساعة وهي لا تدرك شيئاً ولم يبق من معارفها السابقة سوى التلفظ ببعض

الالفاظ كما يتلفظ بها الطفل من غير ان يكون لها ادنى علاقة بشيء كأنها لا تعني بها شيئاً . ولم تعرف احداً من ذويها لا والديها ولا اخوتها ولا اخواتها ولا اصدقاءها كأنها لم تراهم من قبلُ ولا رأت شيئاً مما حولها لا البيت الذي ربيت فيهِ ولا الحقول التي حولهُ ولا التلال ولا الغدران فان كل ذلك ظهر جديداً لديها كأنها ولدت تلك الساعة وفي تلك السن التي هي فيها

واول شيء حاول ذووها تعليمها اياهُ معرفة ذويها وقرابتهم منها فتعذَّر عليها ان تفهم مرادهم من ذلك بل بقيت تحسب ذويها غرباء عنها واعداء لها وقد ألقيت بينهم على اسلوب لا تدركهُ

ثم حاولوا تعليمها القراءة والكتابة فتعلمتها حالاً وكتب اخوها اسمها لكي تكتب مثلهُ فكتبت مثلهُ ولكنها ابتدأت بكتابتهِ من آخره اي من اليمين كما تُكتب العربية

وكانت في حالتها الاولى سرداوية المزاج تحب العزلة فصارت في حالتها الثانية انيسة ضحوكة تحب المزح والاجتماع بالناس ومشاهدة جمال الطبيعة في الهضاب والوهاد فجعلت تضرب فيها ماشية او راكبة وقد تخرج في الصباح فتقضي النهار كلهُ خارجاً الى ان يخيم الليل ولا تبالي هل هي سائرة في طريق مطروق او في برية لا سبيل فيها. ولعلها كانت تميل الى الخروج من البيت لانها كانت تحسب اهلهُ اعداء لها. ولم تكن تعرف ما هو الخوف فان الحراج التي كانت تضرب فيها كانت حينئذٍ كثيرة الارنب السوداء الضارية والافاعي السامة فحذَّرها ذووها منها اما هي فلم تبالِ بل كانت تضحك هازئة بهم وتقول لا يخفى عليَّ انكم تبغون تخويفي لكي ابقى في البيت اما الارانب التي تشيرون اليها فقد رأيتها وهي ليست الاَّ كلاباً سوداء

وذات ليلة قصَّت القصة التالية قالت بينما كنت راكبة اليوم في وادٍ ضيق اعترضني كلب اسود كبير لم أرَ في حياتي اوقح منهُ فانتصب على قدميهِ وكشر عن انيابهِ فوقف فرسي وابى السير كأنهُ خاف من هذا الكلب فضربتهُ لكي يتقدم فجعل يتأخر فناديت الكلب لكي يبعد من طريقي فأبى ولما رأيت منهُ ذلك نزلت عن فرسي وعدوت اليهِ والعصا بيدي فوقف على قوائمهِ الاربع ودار وارتدَّ في طريقهِ وهو يقف بين هنيهة واخرى يلتفت اليَّ ويصر باسنانهِ ثم رجعت وسرت في طريقي واستمرَّت على ذلك خمسة اسابيع ثم نهضت ذات يوم بعد نوم طويل واذا هي

في حالتها الاولى وجعلت تنظر الى والديها واخوتها واخواتها بالحب والبشاشة كما كانت تنظر اليهم قبل ان اصابها ما اصابها كأنهُ لم يصبها شيء. وجعلت تتعاطى اعمالها في البيت كأن الاسابيع الخمسة التي مرت لم تكن في الوجود. ورأت ما حدث من التغيير في البيت فاستغربت حدوثهُ في ليلة واحدة ولم يبقَ في ذاكرتها اقل اثر لما اصابها في الخمسة الاسابيع الماضية ولا لجولاتها ولا لاحاديثها مطلقاً. ولكن عاد اليها كل ما كانت تعلمهُ قبل ان اصابها ما اصابها. وعادت تحب العزلة وعاودتها السوداء ولاسيما بعد ان قص ذووها عليها حديث ما اصابها. وبعد اسابيع قليلة نامت نوماً طويلاً واستيقظت وهي في الحالة المرَضية التي مرَّ وصفها وابتدأت هذه النوبة حيث انتهت تلك فزال من ذهنها انها ابنة لوالدين واخت لاخوة واخوات وزال معهُ ما عملتهُ في الاسابيع الاخيرة التي استردت فيها حالتها الطبيعية ولكنها تذكرت كل ما اصابها في الحالة غير الطبيعية وحسبت ان الفاصل بينهما كان ليلة واحدة. وأُخبرت حينئذٍ بحقيقة امرها فلم تبالِ لان خفة الروح كانت متغلبة عليها فلا تعبأ بشيء. وتعاقبت عليها هاتان الحالتان مدة خمس عشرة سنة او ست عشرة سنة واخيراً استمرت في الحالة الثانية المرَضية ٢٥ سنة الى ان ادركتها الوفاة الا انها لم تكن في هذه السنوات الخمس والعشرين خفيفة الروح شديدة الجذل كما كانت اولاً حتى ظن البعض انها حالة ثالثة لها بل صارت كثيرة التعقل وافرة الاجتهاد على سرور لا يفارقها ولين طبع تحمد عليهِ. ولم يكن يظهر ان في عقلها اقل خلل. وعلَّمت في احدى المدارس في بعض هذه المدة وكان تلامذتها يحبونها ويكرمونها كباراً وصغاراً

وقضت السنوات الخمس والعشرين الاخيرة في بيت ابن اخيها السر الدكتور جون ريلدز وكانت في جانب من الوقت ربة لبيتهِ فاحسنت القيام عليهِ

قال الدكتور وير متمثل ان الدكتور ريلدز هذا لا يزال حيًّا وهو الذي بعث اليَّ بما تقدم من التفاصيل عن عمتهِ وكتب اليَّ في ٤ يناير سنة ١٨٨٨ يقول انها في اخريات ايامها جعلت تتذكر بعض ما جرى لها تذكراً ولكنها لم تكن تعلم أذاكرتها انتبهت لهُ او انهُ ناتج عمَّا سمعتهُ من الغير عنها. وقد توفيت سنة ١٨٥٤ وعمرها ٦١ سنة وفي اليوم الذي توفيت فيهِ نهضت في الصباح لا تشكو شيئاً وافطرت وجعلت تعمل اعمالها البيتية على جاري عادتها ثم وضعت يديها على

على رأسها بغتة وقالت لا ادري ماذا اصاب رأسي ووقعت على الارض فحُملت الى مقعد وللحال اسلمت الروح

وقد شاهدنا نحن حالة متكررة مثل هذه في صديق كان من اظرف الشبان واذكاهم سقط في الامتحان الطبي ثم امتُحن في العام التالي وجاز الامتحان ولكن سقوطهُ السابق اثّر فيهِ تأثيراً شديداً فجعلت تنتابهُ نوبات بؤس وجذل كل يومين او ثلاثة . فاذا كان في حالة الجذل صار كلهُ ظُرفاً لا يكف لسانهُ عن الكلام والتنكيت وزاد عقلهُ مضاء في تشخيص الامراض ووصف العلاج لها. واذا انتابتهُ حالة البؤس او السوداء ثم تعد تسمع منهُ الاَّ الشكوى والانين والتخوف من الناس . كان يزورنا وهو في حالة جذلهِ ويقيم عندنا يوماً او اكثر وهو غاية في الظرف والانس ثم تنتابهُ السوداء فتظلم الدنيا في عينيهِ وعبثاً كنا نحاول اقناعهُ بان هذه الحالة عرَضٌ مفارق وقد يكون سببها سوء هضم واذا قلَّل طعامهُ واستمرَّ على تقليلهِ فقد يصطلح هضمهُ وتفارقهُ هذه السوداء ولا تعاودهُ. فيقول قد يكون هذا نصيب غيري اما انا فقد قضي عليَّ. ثم صارت نوبات الجذل تطول لكنهُ صار فيها كثير التهور في الكلام لا يراعي مقام احد . وتركنا سورية سنة ١٨٨٥ وهو على هذه الصورة وبلغنا انهُ بقي عليها الى ان ادركتهُ الوفاة منذ عهد قريب . ويظهر لنا ان جانباً من دماغهِ كان يعمل بشدَّة في حالة الجذل فاذا تعب تولاهُ الضعف وعمل ضعيفاً الى ان يسترد قواهُ . وكل ما فيهِ داخلي Subjective لا من روح خارجي يعمل بهِ . ومثلهُ مثل كثيرين من الذين يتناولون الحشيش فانهم يصيرون في حالة التحشيش غاية في الظرف والذكاء كأنهم بدلوا باشخاص آخرين وهم ليسوا كذلك في حالهم العادية . ومثل بعض الذين يتعاطون المورفين . نعرف محامياً منهم كان اذا زال منهُ فعل المورفين عنوان الكآبة والسآمة والضجر من الحياة فاذا حقن نفسهُ بالمورفين ولو خلسة صار عنوان البشاشة والظرف وانطلق لسانهُ في الكلام وسرد الحجة بعد الحجة . ولا نظن ان احداً يدَّعي الآن ان ما يصيب هؤلاء الناس من تغير الاحوال ناتج عن فعل ملاك او شيطان او روح ميت من الاموات. لا لان ارواح الملائكة والشياطين والموتى غير موجودة حتماً بل لان هذه الاحوال لا تستلزم ان تكون من افعال الارواح . وسنزيد هذا الموضوع بياناً في الجزء التالي